دور الحج في التواصل الثقافي

بين علماء الحرمين الشريفين والعلماء المغاربة

الدكتور عبد العزيز صالح الغامدي

المكانة العلمية لمكة والمدينة:

وُجدت مكة لتكون مركز إشعاع ديني وعلمي على مدى الزمان، وذلك من خلال نشاط علمائها عبر التاريخ منذ أصبحت دار إسلام ومهبط وحي ومنطلق رسالة إلهية.[1] وعن تفاوت درجات نشاطه قوة وضعفاً حسبما تمرّ به من استقرار وازدهار ورخاء، وإلى ذلك يشير الحافظ الذهبي

---

١. محمد السيد بلاسي، أسماء مكة والمدينة في اللسان العربي، : ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

بقوله عن مكة: «كان العلم بها يسيراً في زمن الصحابة، وكذلك في أيام التابعين...»، إلى أن يقول: «ثم في أثناء المائة الثالثة تناقص علم الحرمين وكثر بعدهما...».[١]

وكثرة العلم وتناقصه الذي يشير إليه الذهبي، مرجعه إلى حركة العلماء المسلمين، ونزولهم بمكة أو المدينة واستقرارهم بهما في رياض الحرمين الشريفين، ومجاورتهم لفترة زمنية، ثم انتقالهم إلى بلد آخر طلباً للعلم، والأخذ عن العلماء في شتّى الأمصار الإسلامية، فكانت تنشط الحركة العلمية في بلاد الحرمين مكة والمدينة، وتتزايد بكثرة الوافدين من علماء المسلمين لأداء الحج أو العمرة أو الزيارة، وتقل في بعض الأحيان، وتصبح في نطاق العلماء المقيمين إقامة دائمة في مكة والمدينة.

ومع ذلك لم تتوقف الحركة العلمية في أيّ عصر من العصور الإسلامية، وإنما ظلت مستمرة بفضل الله عزّوجلّ من القرن الأول الهجري حتى اليوم، فمكة المكرمة كانت ولا زالت نقطة التقاء، ومركز تجمع المسلمين من مختلف الأقطار الإسلامية؛ ولهذا كانت من أقوى مراكز نشر الثقافة الإسلامية والتواصل العلمي الثقافي بين تلك الأقطار الإسلامية في الشرق والغرب والشمال والجنوب، وبقي لمكة مكانتها الدينية في نفس كل مسلم تجعلها دائماً محطّ اهتمامهم، وملتقى للمسلمين من مختلف أقطارهم، وهي

١. الذهبي، الأمصار ذوات الآثار، : ١٥٩.

بحكم دينهم الإسلامي الحنيف لا يمكن أن ينصرفوا عنها، حيث إليها قبلتهم في صلاتهم، وفيها شعائر حجّهم، ومنذ جاء الإسلام أصبحت مركزاً للثقافة الإسلامية يجتمع في رحاب مكة والمدينة في كلّ عام بما لا يجتمع في أيّ مدينة أخرى من مدن البلاد الإسلامية.

وكان العلماء في العصور الأولى يقصدونها من مختلف أقطار العالم الإسلامي ليؤدّوا ركناً من أركان دينهم الحنيف، وليضيفوا على ذلك أموراً أخرى، من أهمّها: التزوّد بزاد التقوى، والعمل الصالح، والعلم، والمعرفة.

فالعالم المسلم يفد إليها من أقصى المشرق أو المغرب فيلتقي بعالم آخر من بلاد بعيدة عن بلاده، فيحصل بهذا الالتقاء تقارب وتفاهم، واستزادة علم بينهم، وتواصل علمي وتعارف واستمرار لروافد المعرفة، وانتشار للعلوم والمعارف بين مختلف الأقطار الإسلامية.[1]

وعلى أيّ حال لم تعد بلاد الحرمين الشريفين في مكة والمدينة في عصر من العصور الإسلامية العلماء والفقهاء من المقيمين أو المجاورين أو الوافدين إليها من أبناء الأمة الإسلامية، ويؤكد انتساب بعض أبناء الأمم والشعوب الإسلامية إلى مكة إقامتهم فيه لفترة من الزمن تعلّماً أو تعليماً، فأصبحت لهم ألقاب متنوعة يعرفون بها ويتميزون شرفاً بها، مثل: «إمام الحرمين»، و «جار الله»، أو «المكي»، أو «المدني»، وهي شواهد صادقة

---

١. حمد الجاسر، أشهر رحلات الحج رحلتي ابن عبد السلام الدرعي، دار الرفاعي للنشر والتوزيع، ط. ١، ١٤٠٢ هـ :١١.

عبر التاريخ على الدور العلمي للبلدتين مكة والمدينة في المجالين العلمي والفكري والثقافي، للأفراد خاصة، والأمة الإسلامية عامة.[١]

وقد أنجزت في الرحاب الطاهرة وفي حمى الحرمين الشريفين بمكة والمدينة الكثير من المؤلفات العلمية القيمة التي كتب الله لها الانتشار في الأقطار الإسلامية.

ومنها على سبيل المثال: «صحيح البخاري»، يقول عنه الإمام محمد ابن إسماعيل البخاري: «صنفت كتابي الجامع في المسجد الحرام...».

ومنها: «الكشاف عن حقائق التنزيل» و «عيون الأقاويل في وجوه التأويل»، للإمام جار الله الزمخشري، فقد شرع في تأليفه وأتمه بين ظهراني المسجد الحرام بمكة حرسها الله، حيث وقع التأويل، وحيث وجد التنزيل.[٢]

وقدمت مكة والمدينة للعلوم الإسلامية علماء أجلاء فضلّت كتب التراجم والطبقات في ذكر أحوالهم ومؤلفاتهم على مدى العصور الإسلامية، ومن تلك المؤلفات على سبيل المثال كتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين»، لتقي الدين الفاسي (ت. ٨٣٢ هـ)، الذي اهتم فيه مؤلفه بتراجم علماء مكة، مرتبين على حروف الهجاء ألفه، فكانت أعدادهم تصل إلى الآلاف.

---

١. عبدالوهاب أبوسليمان، الحرم الشريف الجامع والجامعة، نادي مكة الثقافي الأدبي:٦ـ٧.
٢. محمد السيد علي بلاسي، أسماء مكة والمدينة في اللسان العربي، : ٢٣٤.

وكتاب: «الدر الكمين بذيل العقد الثمين»، الذي وضعه النجم: عمر بن فهد (ت. ٨٨٥ هـ)، فأكمل فيه ما نقص من كتاب «العقد الثمين من تراجم المكيين»، وذيل عليه بتراجم من ظهروا بعد تأليف العقد الثمين، فأورد فيه آلافاً أخرى من تراجم العلماء المكيين.

وهذان الكتابان من أهمّ المراجع العلمية والتاريخية لأخبار المكيين من علماء وفقهاء وأهل ثقافة وأدب.[١]

وكان لمكة المكرمة والمدينة المنورة ولعلمائها وفقهائها الفضل الكبير بعد الله عزّوجلّ على النهضة العلمية في كثير من البلاد الإسلامية؛ إذ فتحت أبوابها لأبناء المسلمين، واستقبلتهم ساحاتها العلمية، وتهيأ لهم طلب العلم في رحاب الحرمين الشريفين ولقاء العلماء الأجلاء، فانتشرت العلوم إلى البلاد الإسلامية الأخرى بفضل الله عزّوجلّ، ثمّ بفضل علماء الحرمين الذين كانوا صلة الوصل ونقطة الالتقاء بين العلماء المسلمين وأبناء الأمة الإسلامية على اختلاف بلادهم.

وغدت مكة والمدينة ـ حرسهما الله ـ مقصداً لطلاب العلم من شتى أنحاء البلاد الإسلامية، وتطورت الحياة العلمية فيها نتيجة لجهود العلماء المسلمين في مكة والمدينة وغيرهم من العلماء، الذين استوطنوا مكة أو المدينة، أو جاوروا فيهما لفترات زمنية، وكتب تراجم العلماء تبين

---

١. المرجع نفسه، : ٢٣٥.

بوضوح أثر هؤلاء العلماء، وتؤكد على النشاط العلمي الذي تزايد مع مرور الوقت من خلال حلقات التدريس في أروقة الحرمين الشريفين، أو من خلال بعض المدارس العلمية التي أقامها الأمراء والسلاطين بمكة المكرمة والمدينة، وأوقفوا عليها الأوقاف والمخصصات المالية، وعينوا العلماء للتدريس فيها، وأنفقوا بسخاء على طلاب العلم لمساعدتهم على التفرغ لطلب العلم.[١]

الحج وأثره في التواصل الثقافي بين علماء الحرمين الشريفين والعلماء المغاربة:

إذا كان عامة المسلمين يشتاقون لأداء فريضة الحج والوصول إلى الأماكن المقدسة بمكة والمدينة، فإنّ العلماء أشد شوقاً ورغبة منهم، وذلك بسبب معرفتهم بأهمية أداء هذه الفريضة وما يحصل عليه المسلم من المنافع والفوائد الدنيوية والأخروية من أداء هذه الشعيرة العظيمة، وما يجدونه من لذة العبادة لله عزّوجلّ والخضوع له، وتوحيده والاستجابة لأمره وسنة نبيه ﷺ، وهم ينتقلون بين المشاعر المقدسة في مكة ومنى ومزدلفة وعرفات، واشتغالهم بأنواع العبادات القلبية والبدنية والمالية،

---

١. أنظر للفائدة: الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ١ : ٢٥٣؛ العقد الثمين ١: ٢٣٥، ٢٣٦، ٣٠١؛ خالد عبدالمحسن، الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، من إصدارات مؤسسة الفرقان للتراث، ١٤٢٦ هـ : ٣٦٨.

خلال أيام الحج المباركة، فيزيد إيمانهم وتطمئن قلوبهم وتصفوا نفوسهم بتلك الطاعات والأعمال الصالحة، وهذا اللقاء الإسلامي الكبير في هذه الأراضي المباركة وفي جوار الحرمين الشريفين لا يتيسر لبعض المسلمين إلا مرة واحدة في العمر، فيدفعه ذلك إلى الحرص على استغلال أداء تلك الفريضة بما يعود عليه بالنفع في دينه ودنياه، فهو إما مشتغلاً بعبادة أو طلب علم أو تجارة، ولا تخلو جميعها من فائدة عليه وعلى أمته الإسلامية.

والحج عبادة ذات فضاء فسيح جمعت المقاصد الدينية والدنيوية، وهي من قبل هذا شعار ناطق يوضح جوهر الإسلام؛ لما اشتملت عليه من مقاصد دينية تتلخص في القرب إلى المولى عزّوجلّ بما وضعه لعباده من مناسك يؤدونها، وعبادات يقومون بها في أمكنة معينة وأزمنة محدودة.[١]

ومقاصد الحجاج ومصالحهم الخاصة على اختلاف أنواعها وتعدد أغراضهم مشروعة معتبرة معتد بها ما دامت في حدود المشروع، وهي تحقق مدلولات نداء أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام واستجابة للأمر:

---

١. عبد الوهاب أبو سليمان، مكة العالمة في موسم الحج في القرن الرابع عشر، ندوة الحج الكبرى، ١٤٢٦ هـ :٣٤٥.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.[١]

وفيما يخص العلم والعلماء؛ فإن أداءهم لفريضة الحج يمكنهم من الالتقاء بغيرهم ممن يحضر موسم الحج، حيث تلتقي أمة الإسلام على اختلاف شعوبهم وأعراقهم، وأصبحت رحاب الحرمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ملتقى لصفوة علماء الأمة ومفكريها على مدى التاريخ الإسلامي، وغدا الحج إلى مكة فرصة مواتية للقاء العلماء والأدباء والمفكرين من شتى بقاع العالم الإسلامي، يتم من خلاله التعارف والإطلاع على المؤلفات، وأخذ الإجازات العلمية فيما بينهم، ويحققون من خلال أداء فريضة الحج أكثر من فائدة، وغاية لا تحقق لهم من دون أداء هذه الفريضة العظيمة والوصول إلى مكة والمدينة ـ حرسهما الله ـ.[٢]

وإلى هذه الغاية العظيمة التي يسعى إليها العلماء، يقول الذهبي: «ولقد كان من خلق طلبة الحديث أنهم يتكلفون الحج، وما المحرك لهم سوى لقيّ سفيان بن عيينة؛ لإمامته وعلوّ إسناده، وجاور عند غير واحد من الحفاظ».

---

١. سورة الحج، الآية: ٢٧.

٢. عبد الوهاب أبو سليمان، مكة العالمة في موسم الحج في القرن الرابع عشر، مرجع سابق، : ٣٤٨.

ويقول عبد الرحمن بن يحيي المعلمي: «... كان من أعظم ما يهتم به العالم إذا حج الاجتماع بالعلماء والاستفادة منهم وإفادتهم، لقد كان بعض العلماء يحج ومن أعظم البواعث له على الحج طلب العلم والاجتماع بالعلماء...».

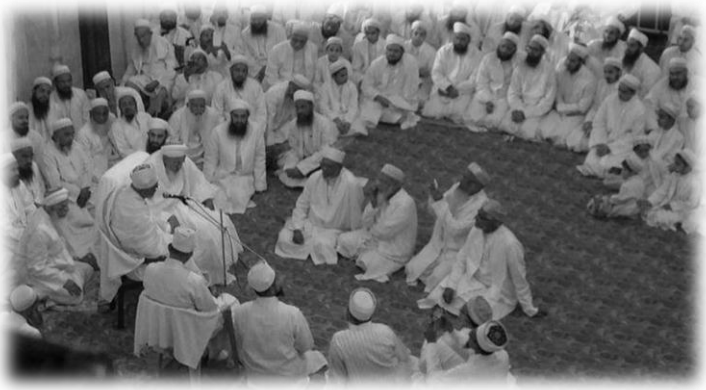

وقد أثمرت هذه اللقاءات العلمية تعاوناً علمياً وفكرياً عبر العصور بين علماء الأمصار الإسلامية.

وأما أخذ الإجازات العلمية فيما بين العلماء وطلبة العلم؛ فقد حرص الوافدون إلى بلاد الحرمين الشريفين ـ حماهما الله ـ على لقاء علماء مكة والمدينة؛ لمكانتهم العلمية، ولأخذ العلوم منهم وحصولهم على إجازات علمية في علوم إسلامية مختلفة، تدل على اعتراف العالم باستحقاق الطالب وجدارته، ولها مدلولها وإفصاحها عن قدر الشيوخ الذين أجازوه، فكلما كانوا ذوي قدر كبير وشأن عظيم في العلم، عظمت

النظرة للطالب، وارتفع قدره؛ إذ مكانته من مكانتهم، وقدره حسب ارتفاع أقدارهم.[١]

ولقد كان الحج أكبر وأعظم وأهم وسيلة قدمها الدين الإسلامي الحنيف للمسلمين أينما وحيثما كانوا، والحج أبرز رسالة موجهة إلينا لمعرفة الآخر ولاكتشاف الآخرين وما لديهم من ثقافات وحضارات، وثقافة الحج وحدها تعبر عن فكر خلاق تجلى فيما قدمه العلماء والفقهاء للأمة الإسلامية من أحكام فقهية تتعلق بأداء الحج، أو الجوانب الأخرى المرتبطة به مثل السفر وآدابه والعلاقات مع الآخرين، وكيفية التدرب على تحمل المتاعب ومواجهة المشاق والمصاعب وغيرها مما يحتاجه الحاج في هذه الرحلة المهمة عند كل مسلم.[٢]

وقد كان للحجاج المغاربة عموماً وللعلماء منهم خصوصاً فوائد متعددة استفادوها من أدائهم لهذه الفريضة العظيمة، فكانوا يحرصون أثناء موسم الحج على الاستفادة العلمية من علماء الحرمين، ويعتزون بالسند الذي يعودون به إلى بلادهم وهم يرددونه في مجالسهم العلمية، ويعود العلماء المغاربة وهم يحملون معهم صورة صادقة عن الدين الإسلامي الحنيف، وما تلقوه من علماء الحرمين الشريفين، ويعود الحجاج المغاربة

---

١. المرجع نفسه، : ٣٤٩.

٢. عبد الهادي التازي، مكة في مائة رحلة مغربية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي١ : ١٤.

بعدما عاشوا أياماً جميلة في رحاب الحرمين الشريفين بمكة والمدينة، وساروا على الأرض التي سار عليها وعاش فيها نبيّ الإسلام محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وآله وصحابته وخلفاؤه الراشدون وعلماء الإسلام من مختلف البلاد الإسلامية عبر العصور التاريخية.

ويلاحظ عند الحديث عن العلماء المغاربة ودور الحج في حياتهم: أنّ الحجاج المغاربة فاقوا غيرهم في الاهتمام بهذه الفريضة وتدوين ما يرافق أداءها من مواقف وأحداث، وقد ترك العلماء المغاربة كثيراً من الرحلات المكتوبة فيها المقتضب وفيها المسهب، وفيها المنثور وفيها المنظوم، والفصيح والعامي، وتدل هذه الرحلات على أنّ الزاد المغربي فيما يتصل بالحج وبمكة المكرمة والكعبة المشرفة وزمزم والصفا والمروة وزيارة المدينة المنورة يحتاج إلى مؤلفات؛ لأنه أدب مليء بالإيمان والعظة والفائدة.[1]

وكان العلماء المغاربة مولعين بالرحلة إلى المشرق فهم بذلك يبحثون عن ذاتهم وعن منابعهم وأصولهم، وتشير المصادر التاريخية إلى هذه الاتصالات، وإلى هذا التواصل الديني والثقافي والاجتماعي بين المغاربة وإخوانهم المشارقة في بلاد الحرمين الشريفين، وكان المغاربة يفاخرون غيرهم بلقب: (الحاج)، ويضيفونه إلى نعوتهم الشخصية، وذلك لأن

---

١. المرجع نفسه ١ : ١٤، ١٦.

المسافة بينهم وبين مكة لم تكن مسافة قصيرة ولا سهلة ولا آمنة، وأصبحت الأسرة المغربية تزهد في ألقابها السابقة مهما كانت وتكتفي بكلمة (الحاج)، ونجد اليوم من العائلات المغربية المعروفة اليوم في الأندلس وبلاد المغرب، عائلة: (ابن الحاج) عوضاً أن تقول: القرطبي، أو القيرواني، أو التلمساني، أو الفاسي،[1] أو غيرها من الألقاب، مما يدل على مكانة الحج إلى بيت الله الحرام في نفوسهم.

وإذا كان الحجاج يفدون إلى الحرمين من جميع بقاع العالم الإسلامي، فإنّ أهم الوفود الإسلامية كما دونتها المصادر التاريخية تتكون من الركب الفاسي المغربي، ثم المصري، ثم الشامي، وكان الحجاج يتعرضون لمخاطر عظيمة، وأهوال كبيرة، ومضاعفات خطيرة على أرواحهم أثناء مرورهم ببعض البلدان أثناء سيرهم إلى بلاد الحرمين الشريفين أو رجوعهم منها، وكانت هذه المخاطر تزيد في فترة السفر اللازمة؛ لقطع تلك المسافات وتتضاعف إلى شهور متتابعة، وما ذلك إلا بسبب كثرة الفساد في بعض البلدان وقلة الأحكام، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.[1]

---

١. عبد الهادي التازي، مكة في مائة رحلة مغربية، المرجع السابق، ١ : ٢٤.

١. عبد الكريم كريم، «بلاد الحجاز في المخطوطات المغربية المدونة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٥، ١٤١٨ هـ : ١١٥-١١٧.

ونجد الشوق العظيم يدفع العلماء المغاربة إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج وزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله والصلاة في الروضة الشريفة، وكانوا يتطلعون بشوق ولهفة للوصول إلى الأماكن المقدسة بمكة والمدينة، ومما يؤكد ذلك ما سجله الحاج الحسن بن الطاهر،[1] عن رحلته إلى بلاد المشرق والحرمين، فيحدثنا عن رحلته قائلاً: «وقع في قلبي شوق عظيم للحج عام ١٣٤٦هـ بسبب أني سمعت منادياً ينادي في وسط السوق بأنّ من أراد الحج فعليه بفلان فليتخابر معه في ذلك...». ثم يقول: ولكثرة الراغبين في الحج تعذر عليه أداؤه في تلك السنة، وأخذ يستعد له، ويجدد الرغبة للعام القابل، فيقول عن ذلك: «وفي عام ١٣٤٧هـ وطدت نفسي على ذلك، وعزمت عليه، وشرعت في أسبابه مع بعض الناس من أهل بلدتي وغيرهم...».

وفاتت عليه وعلى غيره من راغبي أداء فريضة الحج فرصة السفر أيضاً هذه المرة ومات بعض المنتظرين نظراً لصعوبة الإجراءات والشروط التي أشار إليها أثناء حديثه عن هذه الرحلة، حتى تيسر له السفر لأداء الحج سنة ١٣٥١هـ برفقة حجاج آخرين من العلماء والصالحين، فمروا ببلدة آسفي، ثم الرباط، ثم طنجة؛ لركوب السفينة التي تنقل الحجاج من ميناء

---

١. من علماء المغرب، ولد سنة (١٣١٤ هـ)، أخذ عن علماء فاس والقرويين، تقلد منصب نائب القاضي بأسفي، وتولى الإمامة والخطابة بالمسجد الكبير فيها، توفي سنة ١٩٦٩ م.

السويس أو ميناء بور سعيد بالديار المصرية، ومنها إلى الموانئ الحجازية إلى جدة أو الينبع.[١]

وقد واصل هذا الركب رحلته المباركة؛ لأداء فريضة الحج حتى وصل إلى ميناء السويس، ومنه ركبوا الباخرة ضمن من ركبوا من الحجاج الذين وصل عددهم إلى قرابة ٤٨٠ حاجاً، ما بين عراقيّ واسطنبوليّ وشاميّ وفاسيّ ورباطيّ ومراكشيّ ومصريّ، وغيرهم. نزل منهم قرابة ١٧٠ حاجاً في ميناء ينبع، أكثرهم مغاربة قاصدين المدينة للصلاة في مسجدها قبل التوجه إلى ميناء جدة، ومنها إلى مكة لأداء فريضة الحج.[٢]

ونلاحظ من خلال هذه الرحلة اجتماع هذه الأعداد المختلفة الأعراق واللغات والألوان في باخرة واحدة لغاية واحدة، وهي: أداء فريضة الحج، وفي هذا إشارة واضحة إلى دور الحج إلى بيت الله الحرام في توثيق أواصر الأخوة، وتحقيق الوحدة والاجتماع بين أبناء الأمة الإسلامية.

---

١. يعرف حالياً بميناء ينبع، ويقع على البحرالأحمر في غرب المدينة المنورة، وعلى مسافة تقارب ٢٥٠ كيلومتر.

٢. الطاهر وعزيز، «رحلة الحاج الحسن بن طاهر إلى المشرق والحرمين عام ١٩٣٣ م»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٩، ١٤١٩ هـ : ٢٢٣.

ولا زالت ملامح التواصل الثقافي العلمي بين علماء الحرمين الشريفين وعلماء البلاد المغاربية موجودة حتى الوقت الحاضر، حيث يشترك الجميع في حضور المناسبات العلمية والندوات والملتقيات الثقافية خلال موسم الحج.[١] من حين لآخر، فضلاً عن مشاركة العلماء المغاربة لغيرهم من المسلمين لأداء فريضة الحج، يدفعهم الشوق إلى الديار المقدسة في رحاب الحرمين الشريفين، ويجددون بذلك التواصل العلمي القديم فيما بينهم، وهو تجديد وإحياء لصلات علمية وثقافية بين علماء الحرمين الشريفين ـ حرسهما الله ـ والعلماء المغاربة، وساعدت تلك الصلات على انتظام هؤلاء العلماء المسلمين من أقطار الأندلس والمغرب ومصر وبلاد الحرمين الشريفين في صف طويل من العلماء العاملين عبر العصور الإسلامية المتتابعة.

التواصل العلمي والثقافي بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين

حرص العلماء المغاربة ـ رحمهم الله تعالى ـ على استغلال وقت أداء فريضة الحج بلقاء العلماء المسلمين الوافدين إلى مكة؛ لأداء فريضة الحج وبعلماء المسجد الحرام والمسجد النبوي والأخذ عنهم والاستفادة مما لديهم من علوم من جهة، ومن جهة أخرى حرصوا على الاشتغال بتعليم

---

١. حسن محمد بافقيه، «العلاقة الثقافية بين علماء المغرب وعلماء الحرمين» جريدة المدينة المنورة، ملحق الأربعاء، بتاريخ ١٤٢٧/٢/٢٩ هـ : ١٠.

غيرهم ممن يفد إليهم في أماكن بمكة والمدينة، أو يجلس إليهم في حلق دروسهم العلمية بين أروقة الحرمين الشريفين، وأهمَّ هؤلاء العلماء شراءُ الكتب العلمية النافعة، ونسخ بعضها، واستعارة البعض الآخر للاستفادة منها فترة بقاءهم في رحاب الحرمين الشريفين ـ حماهما الله ـ.

ومن خلال قراءة بعض المصادر التاريخية التي أشارت إلى بعض الجوانب من أخبار رحلات هؤلاء العلماء المغاربة لأداء فريضة الحج العظيمة، يلاحظ أنّ بعض هؤلاء العلماء يتوجهون من ميناء ينبع عن طريق البرّ إلى المدينة؛ للصلاة في المسجد النبوي الشريف والبقاء في المدينة ما كتب الله لهم من الأيام ثم يتوجهون بعد ذلك إلى مكة لإكمال شعائر الحج، وبعض آخر من هؤلاء العلماء يصلون أولاً إلى ميناء (جدة)، ثم يؤدون فريضة الحج ويتوجهون بعد ذلك إلى المدينة في المرحلة الثانية من رحلتهم، ويعود ذلك ـ والله أعلم ـ لارتباطهم ببقية الحجاج الذين يرافقونهم في هذه الرحلة الدينية العظيمة، فيسيرون بمجموعة واحدة من بداية الرحلة حتى عودتهم إلى بلادهم.[١]

والرحلة الحجية إشارة إلى أداء فريضة الحج وطلب الركن الخامس من أركان الإسلام، وهذه الرحلة يقطع فيها الحاج المغربي المسافر أطول المسافات متوجهاً إلى البيت العتيق، يسير في البر ويركب السفن في بعض

---

١. سعيد بن سعيد، «أدب الحج في المغرب العربي، نماذج من الرحلة الحجية المعاصرة في المغرب»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٢١، ١٤٢٢هـ : ٣١٨.

الطريق أو كله، يطول الطريق، وتتعدد فيها وسائل السفر، وتتنوع المشاهد والمشاهدات، ولا يخلو الطريق من المغامرات والتعرض للأخطار من موقع لآخر، بدءاً من ساحل مدينة طنجة، ومروراً بالصحراء الجزائرية، ثم الأرض التونسية والليبية والمصرية، ثم فلسطين، ومنها جنوباً باتجاه البيت العتيق والأرض المقدسة بمكة المشرفة.

ورحلة الحج والزيارة إلى الحرمين الشريفين والأماكن المقدسة تستغرق ما بين ستة إلى ثمانية أشهر في الذهاب إلى مكة، ومثله في العودة إلى البلاد المغاربية، وهذه الفترة الزمنية الطويلة تبين لنا حجم المشاق التي يتعرض لها الحاج في سيره إلى بيت الله الحرام، ولكنه كان يكابدها رغبة في الأجر والثواب من الله عزّوجلّ ويصبر على تلك المشاق بقوة إيمان، وعزيمة صادقة، وهمة عالية، ونية خالصة.

وفيما يخص التواصل العلمي والثقافي بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة فإننا نجد أخباراً كثيرة وروايات عديدة في كتب التراجم والتاريخ والرحلات، التي أشارت إلى هذه الظاهرة العلمية المميزة في التواصل بين أبناء الأمة الإسلامية عامة والعلماء وطلبة العلم خاصة، وهي لم تحقق لأمة من الأمم على وجه الأرض إلا لأبناء

الأمة الإسلامية وأتباع الرسالة المحمدية الخالدة على مرّ العصور والأزمان ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ.[١]

ومن خلال هذا التواصل العلمي الثقافي يظهر لنا بوضوح أثر أداء فريضة الحج العظيمة على العلماء المسلمين من شتى الأقطار الإسلامية ولله الحمد والمنة، وقد دوّن بعض هؤلاء العلماء أحداث تلك الرحلة الدينية إلى بيت الله العتيق بمكة، والمشاعر المقدسة بمنى ومزدلفة وعرفات، ثم الوصول إلى المسجد النبوي بالمدينة في مؤلفات خاصة بذلك، مما يؤكد مكانة هذه الفريضة في نفوسهم، وتطلعهم لأدائها، وشوقهم الجارف لرؤية تلك الأماكن المقدسة، وحبهم للاقتداء بسنة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أتم الصلاة والتسليم.

وفيما يلي بعض النماذج الرائعة لهؤلاء العلماء، وأخبارهم من خلال رحلتهم لأداء فريضة الحج.

فهذا الحاج: محمد بن علي بن محمد الرافعي الأندلسي التطواني، يشير إلى رحلته لأداء الحج، وشوقه إلى مكة المكرمة، ورؤية الكعبة المشرفة، بقوله: «... وتشوقي إلى مكة وحِماها، وشغفي بالكعبة الباهية سناها...».

---

١. محمد بن الحسن الحجوي، «رحلة الحج»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٢١ : ٣٢٩؛ وانظر: العدد: ٢٠، ٢٢.

وعن استعداده للحج، يقول: «لما عزمت على حج بيت الله الحرام، وزيارة مسجد نبينا صلى الله عليه وآله منة من الله وإرشاداً، ونعمة منه سبحانه

وإسعاداً...».

ويضيف أنه بذل جهده في محاولة لتأمين المال اللازم لنفقات رحلة الحج، فيقول: «... وشمرت ساعد جدي، واتخذت من الحزم والعزم جهدي، ولم أزل أحاول أن أرهن أو أبيع ما كان بيدي من الطارف والتليد السريع؛ لأتزود في تلك الطريق، وأتعاون مع الصاحب والرفيق...».[1]

---

١. مصطفى الغاشي، «صورة الشرق من خلال المعارج المرقية في الرحلة المشرقية»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ١٥، ١٤٢١ هـ : ٩٣-٩٤.

وعن أثر الحج في التواصل بين العلماء وأهمية الالتقاء بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة، يقول العلامة عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني الإدريسي عن لقائه بعالم الحديث، الشيخ أبو العطار بمكة: «وخدمني التوفيق والسعد في ذلك أكبر الخدمات، وأنالني الحظ بوافر القسمات، حتى أنني لما لقيت مسند الشرق الشيخ أبو الخير أحمد بن عثمان العطار المكي سنة ١٣٣٣هـ جثى بين يدي، وقال: شاركتني في تراجم المشارقة أهل بلادي وأسانيدهم، ومعرفة خطوطهم وأخبارهم، ولم أشاركك في أخبار أهل بلادك ولا لي اطلاع على تراجمهم وآثارهم...»، ويضيف عالم المغرب عبد الحي الكتاني أنه التقى بعالم مكة وعابدها، الشيخ محمد بن سليمان المكي الشافعي، وأخذ إجازة منه بكل ما له من مؤلف ومرويّ...

ويذكر بعد ذلك مقابلته لعدد من علماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة.[١]

وبعد وصول الحاج الحسن بن الطاهر وعزيز إلى مكة المكرمة ـ حرسها الله ـ تمكن بفضل الله من أداء فريضة الحج، ثم استغل فترة وجوده بمكة للتواصل مع علماء مكة، فلقي الفقيه الشيخ محمد عابد الفاسي، ورافقه لزيارة مكتبات بعض علماء مكة، مثل الشيخ الفقيه: محمد

---

١. عبد الوهاب أبو سليمان، مكة العالمة في موسم الحج، مرجع سابق؛ وانظر للفائدة: فهرس الفهارس والأثبات، للشيخ عبد الحي الكتاني ١ : ٣٥٦.

كامل بن محمد ماجد كردي، والفقيه محمد الطاهر الكردي، والفقيه الشيخ إبراهيم الكردي، وتذاكر الجميع في كتب الحديث والشمائل، واطلع الحاج الحسن بن الطاهر على بعض محتويات تلك الخزانة التي احتوت على قرابة عشرين ألف مجلد، كلها للعلماء السابقين من آل الكردي.[١]

وهذه الرحلة المباركة لأداء فريضة الحج هي خير مثال ودليل على التواصل العلمي بين علماء الحرمين الشريفين وعلماء البلاد المغاربية، التي كان أداء فريضة الحج من أهم أسباب استمرارها وتواصلها عبر القرون؛ لتكون رافداً مهماً من روافد الصلة الأخوية بين المسلمين في البلاد المغاربية، والحرمين الشريفين ـ حماهما الله ـ.

ونجد بعض العلماء المغاربة وصفوا رحلتهم لأداء فريضة الحج، ودونوا أحداث تلك الرحلة المباركة، ومنهم: محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي، المعروف بـ(ابن بطوطة)، ولقب بالطنجي، نسبة إلى مدينة طنجة، الواقعة شمال غرب المغرب الأقصى، وهي المدينة التي ولد فيها، في ١٧ رجب سنة ٧٠٣ هـ.

وهذه الرحلة تندرج ضمن الرحلة الأولى من رحلاته الكبرى الثلاث التي استغرقت حوالي ٢٨ سنة من الزمن.

---

١. الطاهر وعزيز، «رحلة الحاج الحسن بن طاهر»، مجلة التاريخ العربي، مرجع سابق، العدد: ٩ : ٢٥٢.

وبعد انتهاء رحلاته الكبرى عاد إلى المغرب وأملى بأمر من السلطان عنان المريني (حكم بين سنتي٨٤٩ ـ ٨٥٩ هـ) رحلته على الكاتب المريني ابن جزي، الذي انتهى من تدوينها في ٣ من ذي الحجة سنة ٧٥٦ هـ.[١]

وقد قدم الرحالة المغربي في هذه الرحلات معلومات مهمة عن البلدان التي وصل إليها، وتعتبر من الوثائق التاريخية والاجتماعية والاقتصادية، وهي وسيلة من الوسائل التي ساعدت على التواصل بين العلماء المغاربة وعلماء بلاد الحرمين الشريفين ـ رحمهم الله ـ.

ويظهر تشوق العلماء المغاربة إلى رحلة الحج وزيارة مسجد الرسول ﷺ والأماكن المقدسة ببلاد الحرمين الشريفين من خلال الإشارات الواضحة الجلية في مؤلفاتهم ورحلاتهم، حيث تكتسب تلك المؤلفات خصوصية مميزة؛ إذ يشغل الراحل فيها شوق إلى الحج ويتطلع إلى اللقاء والاستفادة منهم، ونجد أنّ أغلب الرحلات الحجازية إلى بلاد الحرمين الشريفين بمكة والمدينة التي كتبها العلماء المغاربة قد تضمنت قسطاً كبيراً من أعمال الفهرست، والإشارة إلى نشاط صاحب الرحلة في طلب العلم ولقاء العلماء في تلك الرحلة، ومن الأمثلة على ذلك، العالم: ابن رشيد السبتي (ت٧٢١هـ) في كتابه «ملء العيبة، فيما جمع بطول الغيبة في

١. إبراهيم بوتشيش، «أضواء على مجتمع قفار وعاداته الشعبية من خلال رحلة ابن بطوطة»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٢٦، ١٤٢٤ هـ : ٢٧٠ ـ ٢٨٩.

الرحلة إلى مكة وطيبة»، والعالم أبي العباس المقري (ت١٠٤٠هـ) في كتابه «روض العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس»، والعالم محمد بن زاكور الفاسي (ت١١٢٠هـ) في كتابه «نشر أزاهر البستان في من أجازني بالجزائر وتطوان».[١]

وقد كان هاجس هؤلاء العلماء المغاربة ـ رحمهم الله ـ لقاء الشيوخ، والاستفادة منهم، والجلوس إليهم، والحمل عنهم مما لديهم من علوم ومعارف، فكان ذلك الشغل الشاغل لهم خلال تلك الرحلات، ورصدوا فيها أسماء الشيوخ ومجالسهم العلمية، وأشاروا إلى مؤلفاتهم فكانت تلك الرحلات أشبه بفهرس ضخم لتلك العلوم والمعارف وأصحابها.

وتعتبر رحلة أبي سالم العياشي (ت١٠٩٠هـ)، «ماء الموائد» نموذجاً للرحلة الحجازية التي كتبها علماء المغرب في القرون الأربعة الأخيرة؛ حيث استوفت الحديث عن كل العناصر الثابتة التي جرى بها عرض الرحلة الحجازية من قبل ومن بعد، وأصبحت وعاءاً لحفظ النصوص العارضة من أجوبة فتاوى ومقدمات كتب ورسائل علمية وشخصية، وقصائد شعرية، ونصوص إجازات، ومؤلفات صغيرة وغير ذلك، وأصبحت هذه الرحلة النموذج الذي سار عليه من جاء بعده من كتاب

---

١. عبد الله بن المرابط، «الرحلة الفهرسية نموذج للتواصل داخل العالم الإسلامي: رحلة العياشي (ماء الموائد) نموذجاً»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٢٩، ١٤٢٥ هـ : ٣٥٣.

الرحلات في المنطقة المغاربية، خاصة في اهتمامه بعلماء الأمصار الإسلامية، بقوله: فيمن لقيته بمصر، أو مكة، أو المدينة، بعبارة: «ذكر من لقيته بالمدينة من المشايخ والأعلام والأصحاب الكرام، ممن أخذت عنه، أخذ عني، أو صاحبته في الله، ولم يخب فيه ظني...».[١]

وبذلك ترجم العياشي لأعلام العلماء والشيوخ في بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز، وعلومهم ومؤلفاتهم ودروسهم وحلقات العلم التي وقف عليه أثناء زيارته لتلك البلاد.[٢]

وهذه الرحلة تعدّ من الأدلة على التواصل العلمي والثقافي بين علماء البلاد المغاربية وعلماء الحرمين الشريفين ـ حماهما الله ـ ، وتؤكد توجهات العلماء المغاربة نحو الشرق، وذلك من خلال رحلاتهم الحجازية التي انطلقت من البلاد المغاربية، وكانت تتناول تجربة الرحالة من بلده حتى وصوله الحجاز، أي: رحلات أداء الحج ثم رجوعه إلى بلاده، وكان طريق الحج شاقاً ويحتاج إلى التزود بالمال والمؤونة، والاستعداد للدفع؛ من أجل القوت، والحمل، والركوب، والكسوة، ومصاريف أخرى معروفة، أو طارئة.[١]

---

١. المرجع نفسه، : ٣٥٥، ٣٥٧ بتصرف.

٢. عبد الله بن المرابط، «الرحلة الفهرسية...»، المرجع السابق، : ٣٥٩.

١. أبو القاسم سعد الله، «مع العياشي في رحلته إلى القدس»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ١٠، ١٤٢٠ هـ : ١٩٤.

وكان الرحالة المغربي لا يسافر وحده بل في جماعة، وهنا تصبح الجماعة ظاهرة اجتماعية حيوية، والحاج المغربي كان واحداً من كلّ، وفرداً في جماعة يتضامنون ويتكافلون ويسيرون على مصالح البعض، مما قوى الرابطة الأخوية فيما بينهم خلال رحلة الحج وبعدها.

وقد أشار عبد الله بن محمد العياشي ـ صاحب الرحلة الشهيرة ـ أنه خلال مجاورته بالحجاز لعدة سنوات أخذ عن علماء الحرمين الشريفين، ومنهم زين العابدين الطبري، وعبد الله باقشير، وعلي ابن الجمال، وعبد العزيز الزمزمي، وإبراهيم الكردي، وحسن العجمي، بالإضافة إلى العلماء المغاربة المجاورين بمكة والمدينة في تلك الفترة، مثل: عيسى الثعالبي، أحد أعيان العلماء الجزائريين المهاجرين إلى مكة والمدينة.[١]

وفي طريق هذه الرحلة إلى مكة لأداء فريضة الحج رافق العياشي وفداً جزائرياً يرأسه: عبد الكريم الفكون، فأخذ العياشي عنه مؤلفاته، وأخذ أيضاً العلم عن مجموعة من العلماء في فلسطين، وغيرها، منهم: قاضي القدس في وقته، الشيخ عبد العزيز النفاتي التونسي.

وبيّن العياشي أنه حرص خلال أدائه لفريضة الحج على زيارة بيت المقدس بفلسطين والصلاة فيه، وأشار إلى أنه دعا الله عزّوجلّ وسأله أن

---

١. المرجع نفسه، : ١٩٧.

يعينه على تلك الزيارة وهو بالملتزم بجوار الكعبة المشرفة... فمنّ الله بالإجابة...[١]

وتشير مصادر التاريخ المكّي بما كان للعلماء القادمين إلى مكة المكرمة والمدينة والمجاورين بهما من إسهامات جليلة، ومن جهود ومشاركات كبيرة في النهضة العلمية، وفي مقدمة ذلك: التدريس في أروقة الحرمين الشريفين وساحاتهما وفي أماكن إقامتهم، وتظهر آثار ذلك النشاط العلمي بما استفاده علماء مكة والمدينة من اقتباس أو كتابة وتأليف، وأكّدوا تلك الفائدة بالثناء العطر والذكر الحسن لأولئك العلماء المجاورين بمكة والمدينة، أو القادمين لأداء فريضة الحج، وما حملوه عنهم من إجازات ومؤلفات علمية، ومذكرات شخصية، بينت ما حصل من فوائد علمية في تلك اللقاءات العلمية في رحاب الحرمين الشريفين، ووردت أسماء هؤلاء العلماء الأجلاء الوافدين إلى مكة للحج في كتب التراجم، مثل: كتاب «الجواهر الحسان في تراجم من لقيته من الأساتذة والخلان»؛ للشيخ الفقيه زكريا بن عبد الله بن بيلا المكي، (ت١٤١٣هـ).[١]

ومن العلماء المغاربة الذين وفدوا إلى الحرمين الشريفين وقاموا بالتدريس فيهما وفي غيرهما من البلاد الإسلامية أثناء توجههم إلى مكة؛ لأداء فريضة الحج، وفي طريق عودتهم إلى بلادهم المغاربية:

---

١. المرجع السابق، : ١٩٨ ـ ١٩٩.

١. عبد الحميد أبو سليمان، عطاء العلماء الوافدين إلى مكة، : ٣٦٣.

ـ الشيخ محمد بن علي الدهان الغرناطي، درس بمكة ومصر والشام، واحترف التجارة وكانت وفاته، بقوص من أراضي مصر.[١]

ـ والشيخ شرف الدين محمد بن عبد المرسي (ت٦٥٥هـ) درس بالأندلس، ومصر، والشام، والحجاز، والعراق، وإيران، وما وراء النهر، وجاور بمكة، وحظيت دروسه بإقبال عظيم، وصنف مؤلفات جليلة.

ـ والشيخ محمد بن حجاج الإشبيلي (ت٧٠٦هـ)، قام برحلة إلى بلاد المشرق، فمرّ بالإسكندرية وعدن، ومكة التي استقر بها حتى وفاته، وعرف بالصلاح، وتميز في علوم اللغة العربية.[٢]

ـ والشيخ محمد بن عبد الرحمن اللخمي، المعروف بابن الحكيم (ت٧٠٨هـ)، درس بمكة والمدينة ودمشق وبغداد والقاهرة، وشيوخه كثيرون بالمشرق وأقطار المغرب.[١]

ولقد ارتبط العلماء المغاربة عبر العصور مع بقية المدارس العلمية في بلاد المغرب والمشرق الإسلامية، بصفتهم طلاباً درسوا بها، وحصلوا على

---

١. إبراهيم حركات، «الثقافة وتبليغها بالأندلس في مرحلة الاستقرار»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٨، ١٤١٩ هـ.

٢. المرجع السابق، : ٦٣.

١. المرجع نفسه : ٦٣ـ٦٤؛ وللفائدة انظر كتاب «نفح الطيب»٢ : ٢٦٤؛ وكتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة»،٢: ٤٤٨؛ وكتاب «طبقات المفسرين»٢ : ١٧٣.

إجازات من علمائها، أو بصفتهم أساتذة درس عليهم طلاب من مختلف المدن المغاربية.[١]

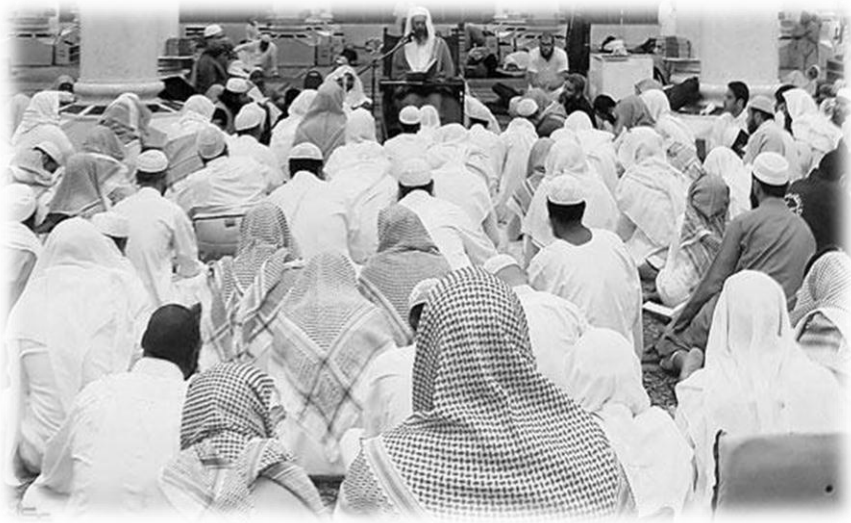

وتشير المصادر التاريخية إلى طائفة من علماء المغاربية الذين درسوا في مصر ومكة والمدينة، وكان أداؤهم لفريضة الحج من أهم الأسباب التي ساعدتهم على هذا التواصل بينهم وبين علماء الحرمين الشريفين، ومنهم على سبيل المثال:

ـ الشيخ أحمد الغربي (ت١١٧٨هـ)، رحل إلى المشرق وأخذ عن شيوخ مصر والحرمين الشريفين بمكة والمدينة.

---

١. عبد الكريم كريم، رباط الفتح عاصمة الثقافة العربية، مجلة التاريخ العربي، العدد:٣٩، : ٢٤ ـ ٢٦.

ـ والشيخ محمد بن التهامي بن عمرو (ت١٢٤٣هـ)، رحل إلى مكة لأداء فريضة الحج وطلب العلم الشريف، واجتاز بأرض تونس الخضراء وتلاقى بجماعة من علمائها فأخذوا عنه وأخذ عنهم.

ـ والشيخ إبراهيم التادلي (ت١٣١١هـ)، ارتحل إلى بلاد المشرق مرتين، وأخذ في كل مرة عن شيوخ مصر والحرمين الشريفين.

ـ والشيخ أحمد بن قاسم جسوس (ت١٣٣١هـ)، رحل إلى بلاد مصر وبلاد الحرمين الشريفين، وتلاقى بعلماء الكل واستجاز واستفاد.

وهكذا كان هؤلاء العلماء المغاربة منارات علم وهدى في أقطارهم وخارجها، ينشرون العلم بين الناس ويقومون بالدعوة بين أهلهم وذويهم، برعوا في العلم والدعوة، وضربت إلى مجالسهم العلمية أكباد الإبل طلباً لعلومهم ومعارفهم.[١]

وقد أكّد علماء مكة على حصول هذا التواصل العلمي بينهم وبين العلماء المغاربة، وصرحوا به.

ومن ذلك ما ورد في ترجمة الشيخ حسن المشاط المكي، حيث قال عن ذلك: «وحين قدم العلامة حمدان بن سيدي أحمد الجزائري الونيسي القسطنطيني إلى مكة المشرفة حاجاً عام (١٣٣٧هـ) أنه تشرف بالاجتماع به، وقرأ عليه من أول مختصر خليل بمكة وبمنى أيام الحج وبعد النزول

---

١. عبد الكريم كريم، رباط الفتح عاصمة الثقافة العربية، المرجع السابق.

بمكة، ومكث إلى نهاية ذي الحجة ومحرم الحرام، وانتفع به الشيء الكبير...».[١]

ومن العلماء الذين جاءوا إلى مكة لأداء فريضة الحج، واستفاد منهم علماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة في العصور القريبة:

ـ الشيخ محمد عبد الحي الكتاني، جاء للحج مرتين في سنة (١٣٢٣هـ)، وسنة (١٣٥١هـ).

ـ والشيخ محمد الكي بن مصطفى بن عزوز التونسي.

ـ والشيخ الخطيب المراكشي.

ـ والشيخ السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي (ت١٣٥١هـ).

ـ والشيخ المحدث محمد بن حبيب الله بن سيدي عبد الله الجكني الشنقيطي.[١]

ومما يؤكد على التواصل العلمي بين علماء الحرمين عامة، وعلماء المدينة النبوية خاصة، وعلماء البلاد المغربية، وتشير المصادر إلى قائمة طويلة من أسماء العلماء الذين نقلوا العلوم الإسلامية من بلاد الحرمين الشريفين إلى البلاد المغاربية وبلاد الأندلس، حيث تشير المصادر التاريخية إلى طائفة من العلماء الفضلاء الذين نقلوا مذهب الإمام مالك بن أنس (ت٢٠٤هـ)، وتمكنوا من نشره خارج المدينة النبوية، ومنهم على سبيل

---

١. عبد الحميد أبو سليمان، عطاء العلماء الوافدين إلى مكة، : ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

١. عبد الحميد أبو سليمان، عطاء العلماء الوافدين إلى مكة، المرجع السابق، : ٣٦٧ بتصرف.

المثال، الشيخ الفقيه زياد بن عبد الرحمن اللخمي، والشيخ الفقيه يحي ابن يحي الليثي، والشيخ الفقيه سعيد بن عبد الحكم بن محمد الجمحي المصري، والشيخ الفقيه علي بن زياد التونسي، الذي يعدّ الناشر الأول للمذهب المالكي في إفريقية، وبجهوده عمّت المالكية أقطار المغرب وأقبل الناس عليها بكثرة.[1]

ومنهم العالم: سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، والعالم: شجرة بن عيسى المغافري التونسي، وغيرهم ممن نقلوا «الموطأ» و«مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله»، رواية ودراية إلى أقطار البلاد المغاربية.

وقد حرص الحجاج من العلماء المغاربة على التواصل مع علماء المدينة النبوية الذين يقومون بالتعليم بالمسجد النبوي الشريف وزيارة المكتبات العلمية، وعن ذلك يقول الحاج بن الطاهر بن وعزيز أنه اجتمع بكل من:

ـ الفقيه المحدث: إبراهيم بن عبد القاهر بري الديني، وحضر درسه في الحديث والفقه ونال منه إجازة.

ـ الفقيه: محمد بن أحمد بن محمد حمد العمري، نسبته إلى عمر ابن الخطيب، وأنه تذاكر معه في بعض المسائل وأجازه مشافهة.

ـ الفقيه السيد: خليل، من علماء المدينة النبوية.

---

١. محمد الصادق عبد اللطيف، «السراج المشرق في رواة كتاب الموطأ من المغرب والمشرق»، مجلة التاريخ العربي، العدد:٣٠، سنة ١٤٢٥ هـ : ٢٧١.

وأضاف إلى ذلك زيارته لخزانة الكتب المشهورة بجوار المسجد النبوي الشريف، وهي مكتبة شيخ الإسلام: أحمد عارف حكمت الحسيني، التي احتوت على قرابة ستة عشر ألف مجلد.[١]

وقد حصلت عدة لقاءات علمية بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين لطلب العلم منهم، وأخذ الإجازة منهم، كما حصل من محمد بن حديدي الحنبلي بن الشيخ محمد سنبل الفقيه من علماء الحنابلة بالمسجد النبوي الشريف من إجازة للعالم المغربي الرحالة عبد الله أبو مدين بن أحمد الصغير الدرعي في سنة (١١٥٣هـ).

وتولى بعض العلماء المغاربة التدريس والتعليم بالحرمين الشريفين، والفتوى للمستفتين، أثناء نزولهم بمكة المشرفة وزيارتهم للمسجد النبوي الشريف بالمدينة.

وكان العلماء المغاربة يستفيدون من المكتبات وخزائن الكتب الموقوفة على الحرمين الشريفين، ويستعيرون بعضها للقراءة والاستفادة منها، فضلاً عن شرائهم للعديد من المؤلفات في مختلف العلوم الإسلامية، فكان العلماء المغاربة من أسباب حفظ هذه المخطوطات ونقلها إلى خزائن الكتب بالبلاد المغاربية. ولله الحمد والمنة.

---

١. الطاهر وعزيز، «رحلة إلى المشرق والحرمين»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٩، :٢٥٠ ـ ٢٥١. وقد مكث هذا العالم في هذه الرحلة لزيارة المدينة من ١٢ مارس، إلى ٢٣ منه، في سنة ١٣١٥هـ/ ١٩٣٣م.

وفيما يخصّ التواصل العلمي بين علماء الحرمين الشريفين والعلماء المغاربة بواسطة الرحلة العلمية من بلاد المشرق إلى البلاد المغاربية؛ فإنّ المصادر التاريخية تشير إلى هذا التواصل العلمي الثقافي بين الجانبين، ولكنه لا يقارن بما يحصل في رحاب الحرمين الشريفين بمكة والمدينة أثناء السنة عامة، وفي موسم الحج خاصة، فالعلماء المغاربة الأجلاء ـ رحمهم الله ـ كانوا يأتون إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء ركن من أركان الإسلام وعبادة الله عزّوجلّ وزيارة لمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، فساعد ذلك على تزايد توافدهم باستمرار إلى بلاد الحرمين الشريفين بأعداد كبيرة في موسم الحج طاعة لله واتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، مع ما يجدونه من لذة وسعادة وراحة

نفسية أثناء سيرهم لأداء هذه الشعيرة العظيمة، وخلال مدة إقامتهم بمكة المشرفة والمشاعر المقدسة وفي المدينة المنورة، فهم بين طاعة وعبادة وطلب للعلم، وتواصل وتحقيق أخوة إسلامية مميزة وفريدة ونادرة مع إخوانهم حجاج بيت الله الحرام، أو أقرانهم من العلماء من بقية الأمصار الإسلامية الذين اجتمعوا في رحاب الحرمين الشريفين.

ويلاحظ قلة عدد العلماء الوافدين من المشرق باتجاه بلاد المغرب، ويعود ذلك لعدة أسباب، منها: سوء الأوضاع الداخلية والسياسية في بعض الأحيان في تلك البلدان، ومنها: الخوف وعدم الأمن على النفس؛ بسبب هيمنة الأساطيل البحرية المسيحية على مياه وسواحل أجزاء كبيرة من البحر الأبيض المتوسط، فكانت الأعمال عدوانية مستمرة، واعتداءات القراصنة عليها في عرض البحر أو في الموانئ.

ومن الأمثلة على ما تعرض له بعض العلماء من تلك الأعمال، ما حدث للشيخ إبراهيم بن خلف السنهوري، الذي توجه من مدينة دمشق إلى تونس، وقضى مدة بالمغرب بعد إفلاته من أسر القراصنة.[١]

ومن الأسباب التي قللت من التواصل بين علماء الحرمين الشريفين والعلماء المغاربة عن الرحلة العلمية إلى البلاد المغاربية ـ من وجهة نظري والله أعلم: أنّ ما يبحث عنه العلماء وطلبة العلم بمكة والمدينة

---

١. إبراهيم حركات، «الثقافة وتبليغها بالأندلس في مرحلة الاستقرار»، مجلة التاريخ العربي، مرجع سابق، العدد: ٨ :٥٧.

ـ حرسهما الله ـ من علم والتقاء بالشيوخ والعلماء المسلمين الآخرين؛ قد تهيأ لهم بفضل الله عزّوجلّ وتيسّر لهم ذلك من خلال قدوم العلماء المسلمين المغاربة وغيرهم إلى رحاب البيت العتيق لأداء فريضة أو إلى الروضة الشريفة بالمدينة للصلاة في المسجد النبوي، فخفف الله عنهم عناء السفر والانتقال والارتحال لطلب العلم بوصول هؤلاء العلماء الفضلاء من شتى أقطار البلاد الإسلامية، مما شجعهم على استغلال الأوقات في الاستفادة من هؤلاء العلماء، وحثّهم على لقاءهم والجلوس إليهم للأخذ من علومهم، فكانت أروقة الحرمين الشريفين خلال موسم الحج خاصة منهلاً عذباً عاماً ينهل منه العلماء وطلبة العلم المسلمين في كافة العلوم الإسلامية، وهذه إحدى المنافع المباركة من أداء فريضة الحج وسوف تستمر هذه المنافع والفوائد مع استمرار توافد العلماء إلى الحرمين الشريفين ـ حماهما الله ـ ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

صفحات مشرقة من تاريخ العلماء المغاربة

للعلماء المسلمين المغاربة صفحات مشرقة في تاريخ الأمة الإسلامية، وذلك بسبب ما قدموه من أعمال جليلة في مجال نشر العلم والتعليم في بلدان عديدة، وإن كان هذا البحث يتناول التواصل العلمي والثقافي بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين؛ إلا أنه تجدر الإشارة إلى النشاط العلمي والثقافي وغيره من الأنشطة الأخرى التي ساهم فيها العلماء المغاربة الفضلاء، وقد كان هؤلاء العلماء أشبه بمدارس

علمية متنقلة في الأمصار الإسلامية، يفيدون ويستفيدون من غيرهم في المجال العلمي والثقافي في أيّ مكان مرّوا به أو استقروا فيه، وفيما يلي إشارة إلى جانب من هذه الصفحات المشرقة من تاريخ العلماء المسلمين المغاربة ونشاطهم العلمي والتعليمي، خلال أداءهم لفريضة الحج أو ارتحالهم لطلب العلم عبر العصور الإسلامية المختلفة:

أشارت المصادر التاريخية إلى تواصل وثيق بين علماء البلاد المغاربية وبلاد المشرق، فنجد طائفة من العلماء المغاربة ارتحلوا إلى المشرق الإسلامي، واستقروا في طريقهم بالديار المصرية، ونزلوا بها وقد تركوا للأجيال بعدهم عدداً كبيراً من المؤلفات العلمية، وساهموا في إثراء الحركة الثقافية والفكرية في الشرق الإسلامي عامة والبلاد المصرية خاصة، وأورد الرحالة في مؤلفاتهم عن رحلاتهم وصفاً لما شاهدوه أثناء إقامتهم في بلاد مصر والحجاز، مثل المساجد والآثار والأسواق والمكتبات ودور العلم وما تحتويه من ذخائر وكنوز علمية، وحضر بعض هؤلاء الرحالة دروس العلماء فوصف أساليب التعليم وضلاعة رجالات الفقه والحديث وغيرها من العلوم الإسلامية.[١]

---

١. عبد العزيز بن عبد الله، «ريادة فكرية بين مصر والمغرب»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ١٥، ١٤٢١ هـ: ١٠ــ١١؛ وانظر بحث: علي أحمد، «بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ١٥.

وقد كان التوجه لأداء فريضة الحج من أهم الأسباب التي ساعدت على هذا التواصل بين المسلمين في البلاد المغاربية وبلاد الحرمين الشريفين مروراً بالديار المصرية.

وتشير المصادر إلى قائمة طويلة من العلماء المغاربة الذين نزلوا بمصر واستقروا بها للتعليم والفتوى والإمامة والقضاء.

ومن أشهر من أقام بمصر في مطلع القرن الرابع الهجري: أبو الخير التيناني (ت١٣٤٣هـ)، وقد كان من أهم أسباب استقرار العلماء المغاربة بمصر أنها على طريقهم، وهم يتجهون إلى مكة لأداء فريضة الحج وزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله.[١]

وقد شهدت العلاقات الثقافية بين بلاد المغرب ومصر في العصرين المريني والمملوكي ازدهاراً ملحوظاً، وذلك بفضل عملية التواصل العلمي التي اهتم بها العلماء المغاربة في ذلك الوقت من خلال رحلاتهم المتعددة والمتواصلة إلى الديار المصرية، ويلاحظ تعدد رحلات العلماء المغاربة نحو البلاد المصرية في حين تقل رحلات العلماء المصريين إلى بلاد المغرب، ويرجع هذا التفاوت بين الجانبين إلى أنّ علماء المغاربة كانوا يقصدون المشرق الإسلامي لأداء فريضة الحج أولاً، ثم لطلب العلم أو البيع والشراء والتجارة، أو للمشاركة في الجهاد في سبيل الله ضدّ عدوان الصليبيين على

---

١. طه عبد الرحمن، «الإسهام المغربي في التراث الإسلامي»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ١٤، : ١٦.

البلاد الإسلامية في مصر وبلاد الشام، بالإضافة إلى أنّ ركب الحاج المغربي يضم عدداً وافراً من العلماء وطلبة العلم الذين يرغبون في تحقيق مقصدين شريفين هما:

١ ـ الحج إلى بيت الله الحرام.

٢ ـ طلب العلم والاستزادة من العلماء، والحصول على الإجازات من كبار الشيوخ وسماع الروايات، وحفظ الأسانيد والاطلاع على المصنفات العلمية والأدبية؛ حيث تشير المصادر إلى ازدهار العلم في المشرق الإسلامي في هذه الفترة الزمنية.[١]

وقد نتج عن هذا التواصل العلمي بين العلماء المغاربة وعلماء الديار المصرية ـ رحمهم الله ـ استفادة كل منهم من الآخر علمياً، ونشطت مراكز التدريس في المدارس والجوامع والزوايا، وانتشرت هذه النهضة العلمية إلى بقية الأقطار الإسلامية حيث نقلها العلماء المغاربة بعد ذلك باتجاه بلاد الشام والحجاز، عبر الإقامة المؤقتة أو الدائمة في تلك البلدان

١. عبد العزيز الضعيفي، «علاقة العلماء المغاربة بنظرائهم المصريين بين الاستفادة والإفادة نماذج من العصر المريني»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٢٩، : ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

واشتغالهم بالعلم والتعليم والتأليف واقتناء المؤلفات العلمية والعودة بها معهم إلى البلاد المغاربية.[١]

ومن الأمثلة على التواصل العلمي بين علماء البلاد المغاربية وغيرهم من العلماء، نجد الشيخ مرتضى الزبيدي إمام أهل اللغة في القرن الثاني عشر الهجري يتتلمذ لأبي عبد الله محمد بن الطيب الشرقي الفاسي (ت ١١٧٠هـ) في أكبر موسوعة لغوية في العصر الحديث، وهي: «تاج العروس من جواهر القاموس، وتتلمذ لمحمد الحسني البليدي الجزائري.

لقد استوثقت أبلغ الروابط وأعمقها بين المشرق العربي والبلاد المغربية على يد العلماء الذين كانوا يهاجرون زرافات ووحداناً في موجات غامرة كل عام للحج، أو علماء المشرق الذي يفدون إلى ملوك المغرب، من أمثال الملك: المنصور السعدي، الذي احتضن بلاطه رجالات أفذاذ من علماء الحرمين الشريفين والقدس ومصر والشام والعراق وغيرها، وكانت الوسيلة الوحيدة لعبور الحدود من المشرق إلى المغرب أو

---

١. المرجع نفسه، : ٤٠٠ ـ ٤٠٢ بتصرف. وللفائدة، انظر: «بحث البيوت التجارية المغربية بالقاهرة في القرن السادس عشر»، عبد الرحيم عبد الرحمن، المجلة التاريخية المغاربية، العدد: ١٢١، : ٢٣.

العكس، هي: الإسلام والعروبة التي زادت من قوة التواصل العلمي بين العلماء المسلمين في تلك البلدان.[١]

وحظيت ما يعرف ببلاد الأندلس بالتواصل العلمي من قبل العلماء المغاربة، فقد كانت هناك حركة تواصل ثقافي وثيقة بين علماء البلاد المغاربية وبلاد الأندلس، حيث انتقل العلماء بين الناحيتين فازدهرت الحركة العلمية والثقافية ونشطت حركة التأليف والتصنيف في مختلف العلوم فضلاً عن الحلقات العلمية والدروس التي في المساجد والمدارس.[٢]

إنّ هذه الإشارة الموجزة لجهود العلماء المغاربية تبيّن لنا الأعمال الجليلة التي قاموا بها في مجالات العلم والتعليم والفتوى والقضاء والإرشاد والتوجيه في مختلف الأقطار الإسلامية التي مرّوا بها أو استقروا فيها خلال رحلات الحج أو طلب العلم أو نشره بين أبناء الأمة الإسلامية، وهي أعمال جليلة لهؤلاء العلماء ما زالت آثارها وفوائدها شاهدة على فضلهم حتى وقتنا الحاضر، وما تلك الأعمال إلا ثمرة طيبة من ثمار ومنافع

---

١. عبد العزيز بن عبد الله، «التراث العربي وعناصره الصالحة لنهضة عربية حديثة»، مجلة التاريخ العربي، العدد: ٨، ١٤١٩ هـ : ٣٠ ـ ٣٢ وما بعدها، وفيها إشارة إلى العلماء المغاربة الذين عاشوا في العراق والشام، وشاركوا في الحياة العلمية والثقافية والعسكرية وجهاد الصليبيين بالشام.

٢. إبراهيم حركات، «الثقافة وتبليغها بالأندلس في مرحلة الاستقرار»، مجلة التاريخ العربي: ٨، : ٦٠ ـ ٦١.

التوجه إلى الحرمين الشريفين؛ لأداء فريضة الحج وزيارة مسجد رسول الله ﷺ، ونتج عنها عبر العصور التاريخية ذلك النموذج الفريد للتواصل بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة.

الخاتمة:

فبعد هذه الإطلالة العلمية التاريخية عن التواصل العلمي والثقافي بين العلماء المغاربة وعلماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ـ حماهما الله ـ نجد الأثر العظيم الذي تركه أداء فريضة الحج على العلماء المسلمين عامة وعلماء الحرمين الشريفين خاصة، حيث سنحت الفرصة لهؤلاء العلماء الأجلاء من مختلف البلاد الإسلامية للالتقاء في رحاب الحرمين الشريفين وبين أروقتها مهبط الوحي بمكة المكرمة والمدينة المنورة وفي أرض الرسالة والنبوة، فكانت حلقات العلم والتعليم للمقيمين فيهما والوافدين إليهما من مشارق الأرض ومغاربها فازدهرت ونشطت الحركة العلمية بمكة والمدينة بجهود العلماء فيهما وبمشاركة العلماء المسلمين الوافدين إليها أثناء موسم الحج العظيم، وتحقق لهم جميعاً كثيراً من المنافع الدينية والدنيوية الناتجة عن أداء هذه الشعيرة الدينية العظيمة والركن الخامس من أركان الدين الإسلامي الحنيف، وما هذا التواصل بين هؤلاء العلماء إلا فائدة طيبة مباركة من فوائد ومنافع أداء فريضة الحج.

ومن خلال اجتماع العلماء المسلمين عامة والعلماء المغاربة خاصة مع إخوانهم علماء الحرمين الشريفين بمكة والمدينة أصبحت بلاد الحرمين

الشريفين مقصداً دينياً وعلمياً وثقافياً لطالبي العلم من شتى الأقطار الإسلامية، وأصبح الحجّ منذ أن فرضه الله عزّوجلّ على الأمّة المحمّدية من أهمّ الأسباب التي ساعدت على قوّة الأمّة واتحادها واجتماعها وتعاونها فيما بينها في شتّى المجالات.

وما زالت الأمّة الإسلامية ـ ولله الحمد والمنة ـ تجني ثمار هذا الركن العظيم: «الحجّ إلى بيت الله الحرام» حتى وقتنا الحاضر، و إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وستبقى منافع الحج تتابع وتتزايد باستمرار قدوم حجاج بيت الله الحرام وعمّاره وزواره وقاصدي مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله الذين أدركوا ما للحج من فوائد ومنافع، فتسابقوا للمشاركة في ركب حجاج بلدانهم يدفعهم إلى ذلك الرغبة في الأجر والثواب من الله عزّوجلّ، ونيل فضائل الحجّ إلى بيت الله الحرام ويحثّهم الشوق لرؤية البيت الحرام والصلاة فيه، والكعبة المشرفة والطواف بها، وشرب زمزم، والسعي بين الصفا والمروة، واقتفاء سنة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله، و يحدوهم الأمل بالوصول إلى المدينة النبوية والصلاة في مسجده الشريف، ثم السلام على خير البرية وخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله.

وإذا كان هؤلاء العلماء ـ رحمهم الله ـ قد لاقوا في العصور السابقة المشاق والمصاعب والأخطار المتعددة؛ فإنه ـ ولله الحمد والمنة ـ قد زالت تلك المشاق التي كانوا يتعرضون لها أثناء توجههم لأداء فريضة الحج في

الوقت الحاضر، وأصبح أداء الحج في أمن وأمان واطمئنـان، وفي سـهولة ويسر... وما ذلك إلا بفضل ربّ العزة والجلال...

❊ ❊ ❊